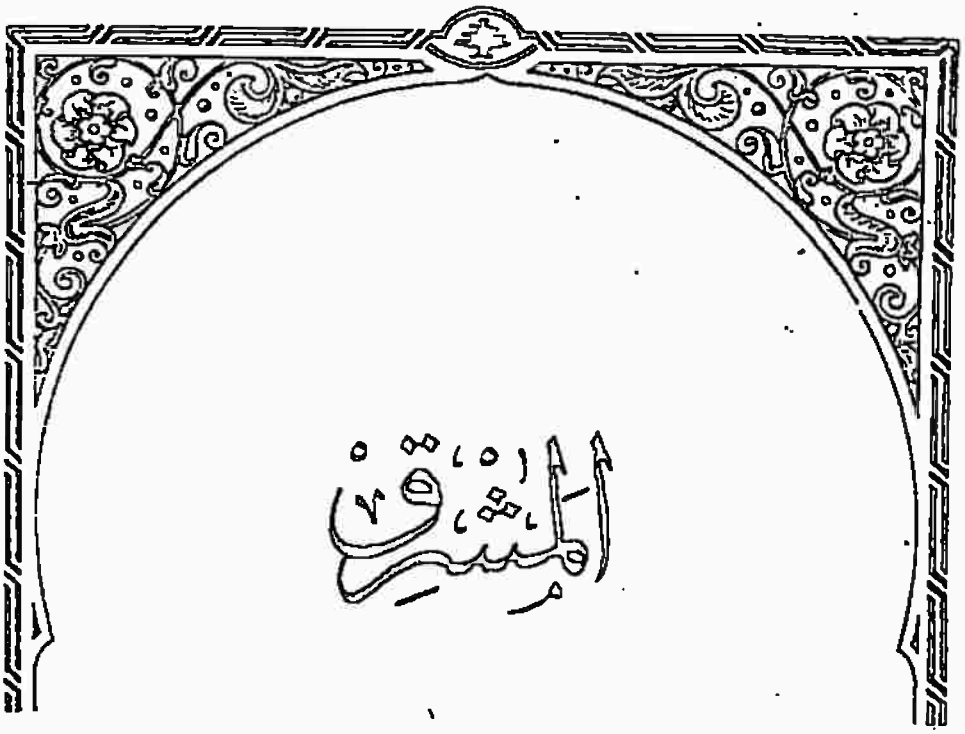

السنة الخمسون

تموز-تشرين الاول ١٩٥٦

تاريخ الدول السرياني

تأليف أبي الفرج الملطي (تابع)

بقلم الاب اسحق ارمة السرياني

وفي هذا الشتاء اجتمعت الكواكب السبعة السيارة في برج الجدي. وشمل الناس الرعب بسبب ذلك[1]. ذلك لانه زحل وعطارد لا يجتمعان في برج الدلو الّا في الصيف.

امّا صاحب مصر فلمّا بلغه ان الملك ارغون تعزّز في مملكته وانتهى أمر احمد ومَن معه بعث فأخرج الشيخ عبد الرحمن من سجن القلعة وجعله في احد (٥٥٦) مساجد دمشق وما زال يقوم بجميع نفقاته. ولا يخفى ان هذا عبد الرحمان يتحدّر من عبدٍ من عبيد الخليفة المستعصم وهو رومي المحتد. ولمّا

١) انّ ما يحدث في الدنيا ليس ناتيًا عن مسير الكواكب او اجتماعها بل يجري بمشيئته تعالى لان عصفورًا واحدًا لا يسقط على الارض دون مشيئته (متى ١٠ : ٢٩).

فتح التتر بغداد افلت من القتل وسار الى الموصل وتعاطى التجارة في احد اسواقها وكان قد اتقن تلك الصناعة واحبها . ثم انطلق الى قلعة العادية وقال لعزّ الدين صاحبها انه قادر ان يعمل اعمالاً عجيبة التقنها بوحي روحانيّ . فمضى به الى آباقا وحادثه وقال له : مُر بذهابي الى خزانتكم في قلعة تلا كي أبدي لكم صناعتي . فمضوا به اليها وجعل يقيس أرضها هنا وهناك ثم انتصب في مكانٍ ما وأمر ان يحفروه وهو واقف بعيدًا . فحفروا وعثروا على خاتم له فصّ عجيب غالي الثمن فاخذوه الى الملك . ولمّا تحققت كذبته في هذا جعلوا يصدّقونه في كلّ ما يقوله . من ذلك انه قادر ان يطرد الشياطين ويطلع على اسرارها . واحتظى لدى اولاد الملوك حتى انهم ولوه سياسة الدولة كلها ولا سيما في اثنا. مملكة احمد القطيرة . قيل ان المغول لمّا نهبوا خزانة الخليفة استاقوه هو كذلك الى قلعة تلا وجعل يدخلها حاملاً بعض الاغراض وفي جملتها الخاتم المذكور وهو الذي طمره في تلك الارض .

وفي كانون الثاني من هذه السنة وجه ارغون ملك الملوك مناشير الى كل البلاد يقول : ان احمد خالف شرائع آبائنا وسار في طريقة الاسلام التي جهلوها فقد اتفق ابنا. الملوك قاطبةً وعزلوه ووجّهوه الى الخان ابينا ليحاكمه وأجلسوني على عرش المملكة التي تمتدّ من جيحون حتى بلاد الفرنج . فطيبوا نفساً . ولينصرف كلٌّ الى عمله وليحذر الولاة والحكّام في كل مكان من ان (٥٥٧) يتعدّوا على احد . والاّ فلا بدّ من فلق رؤوسهم .

وبلغنا في هذه الايام ان صاحب مصر أرسل الشيخ عبد الرحمان واصحابه من دمشق الى قلعة صفد واعتقلهم هناك ولا يُرجى خلاصهم .

وفي هذه السنة ١٥٩٦ لليونان (١٢٨٥ م) باضت في برطلّي دجاجةٌ بيضةً تحاكي بكبرها بيضة الوزّ . وفي اسبوع الآلام الخلاصيّة باضت دجاجة اخرى هناك بيضة صغيرة عنقها رقيق معوجّ طويل مثل القطينة وشاهدناها بعيننا .

وصباح الاحد ٢٩ تموز انقضّ جيش سورية في ستمائة فارس من اكراد واتراك وبدو على بلد اربيل ونهبوا وقتلوا رجالاً كثيرين من عمكاباذ وسنرهجان وغيرهما من القرى . وخرج بها. الدين الامير الكرديّ من اربيل ليناوشهم فانكسر وانقلب عائدًا الى المدينة . وقد استاق اولئك الخيّالة النساء والبنات

واشياء كثيرة وذهبوا .

وفي السنة ١٥٩٧ لليونان (١٢٨٦ م)[1] احتشد زهاء اربعة آلاف فارس من لصوص الاكراد والتركمان والعرب وانضمّ اليهم فيما قبل ثلاثمائة فارس من مماليك مصر واقبلوا في ١٧ حزيران الى بلد الموصل واكتسحوا القرى في طريقهم وانقضّوا على المدينة صباح الاثنين ٢٢ ربيع الاول ٦٨٥ للعرب (١٢٨٦ م) فركب الملك مسعود وسائر الفرسان الذين (٥٥٨) في المدينة وخرجوا ليناوشوهم . ولكنّهم لمّا شاهدوا كثرتهم وعجزوا عن مقاومتهم عبروا دجلة وتوجهوا الى دير مار متي واقاموا هناك بضعة ايام . اما اللصوص الخبثاء فقد دخلوا المدينة واستقبلهم العرب اهلها باطعمة فائضة ومياه باردة . وفرحوا بهم فرحاً عظيماً ظانّين انهم سيناوشون النصارى دونهم ويفزونهم ويقتلونهم . اما نصارى حيّ بيعة التكريتيّين فقد ذهبوا بنسائهم واولادهم واموالهم الى دار نقيب العلويّين ابن عمّ النبي معتقدين ان اللصوص لن يتعرّضوا لها احتراماً للنقيب وتعذّر على سائر المسيحيين الهرب الى تلك الدار فانزووا في بيوتهم خائفين مذعورين يبكون وينوحون ويندبون سوء حظهم . لكنّ الامر جرى عكس ما توهموا فان اللصوص جعلوا يسألون عن المسيحيّين فقال لهم اسلام المدينة بفم واحد انهم في دار النقيب . فاستجمعوا قواهم وساروا اليها واقاموا السلالم وتسلّقوا واحتلّوا الدار وانتهبوا وسبوا كل من فيها . واصيب رجل نصراني بسهم قضى على حياته . وجعل اللصوص ينكلون بالنصارى والمسلمين معاً ويفضحون النساء والبنين معاً والبنات وهم داخل المسجد دون حياء . وبعد هذا توجهوا الى حيّ اليهود ونهبوا بيوتهم وسبوهم جميعاً .

اما النصارى الذين ظلّوا في بيوتهم منزوين فلم يؤذهم احد بل لم يشاهدوا اللصوص باعينهم . غير ان بعض التجار النصارى والمسلمين القادمين الى المدينة والنازلين في فنادقها الخارجية نجوا من اللصوص . ولكنهم (٥٥٩) بسبب خوفهم خسروا كمية وافرة . وذلك انهم ذهبوا بأحمالهم الى المدينة ووضعوها في سوق البزّازين حيث كانت تُحفظ ارزاق الاهالي . وكان كل من اولئك

١) في ٣٠ تموز من هذه السنة توفي ابو الفرج ابن العبريّ مؤلف هذا التاريخ . وقد أكمل كتابه هذا أخوه برصوما الصفيّ .

التجار يسابق صاحبه في وضع بضائعه هناك . وماثلهم في ذلك اهل المدينة فنقلوا الى ذلك السوق ذهبهم وفضتهم وامتعتهم وثيابهم . وبعد هذا كله زحف اللصوص وحطموا ابواب السوق ودخلوا واحتووا كل ما وجدوه . وكان جمهور من الشبان واقفين على باب السوق فجعلوا يخطفون ما تيسر من الغنائم وينهزمون . وكان بعضهم يتركون خيلهم على الباب ويدخلون لينهبوا فكان الشبان يركبون تلك الاحصنة ويفرّون بها . وظلّ اللصوص من الصباح حتى المساء يطوفون الاسواق والشوارع ويسرقون من الاحصنة والبغال والحمير والبقر عدداً وافراً . واعتقلوا نحو خمسمائة من العبيد والجواري اغلبهم مسلمون ويهود. وبعضهم نصارى كانوا في دار النقيب .

على ان صائغاً مسيحياً مشهوراً حاول ان ينقذ ابنه الفتى من ايديهم فثار عليه اولئك اللصوص الاردياء وضربوه بالسيف واقام ثلاثة ايام ومات .

ولم يهلك من اولئك الملاعين سوى عشرة فقط كانوا يطوفون في الاسواق التي لا منفذ لها فوثب اليهم الاهالي وقتلوهم رجماً بالحجارة . على ان الاهالي المسلمين لو عرفوا ان اللصوص ابناء دينهم سيعاملونهم مثل تلك المعاملة الفظيعة لفتكوا باغلبهم في الازقة الضيقة ولكنهم أمسوا يحضون اصابعهم دون جدوى.

ثم ان اللصوص ذهبوا باغنامهم الى خارج المدينة وظلوا الليل كلّه هناك وغلب على ظنّ الاهالي انهم سيعودون في الغد (٥٦٠) الى النهب ثانية . غير انهم نقلوا ما نقلوا وانقلبوا ليلاً عائدين ولم يبقَ منهم احدٌ قطعاً .

وفي ٢٨ نيسان ١٥٩٩ لليونان (١٢٨٨ م) ثارت فتنة بين الاكراد والمغول المجاورين فحقد المغول عليهم ولاذ الاكراد بالفرار وظلّ منهم ستة اختفوا في طريق الموصل . واتفق ان اثني عشر شاباً من قرية خوريدة (قرقوش) مرّوا من هناك فثار عليهم اولئك الاوغاد وذبحوهم ذبح الخراف دون رحمة في ضحى النهار والشمس في قبة السماء . وبعد ساعة اقبل بعض المواصلة وشاهدوا اولئك الشبان المظلومين مضرّجين بدمائهم وكان احدهم على آخر رمق فحملوه الى القرية وهو الذي اخبرهم بما جرى وذكر لهم اسماء القتلة الكفّار . وما عتم ان قضى نحبه وهو كذلك بعد ثلاثة ايام .

اما ارغون بن اباقا فبعدما استقرّت له المملكة أحسن الى برغا الذي أنقذه

من احمد كما ذكرنا سابقاً . وقد عظم امره وارتفعت منزلته جداً حتى ان ابناء الملوك والملكات والعرائس والقوّاد كانوا يختلفون اليه ويقفون على باب داره يطلبون ارزاقهم ومعايشتهم . واصبح الملوك والامراء في كل بلاد التتر يأتمرون بأمره ويحملون رايته الحمراء . وهذا بوغا اقام اخاه آروق إماماً مطلقاً في بلاد بغداد واذربيجان وما بين الهندين وكان يهابه جميع العسكر المغولي وسائر الملوك والسلاطين والكتّاب في الاقطار كلها . وقد تولى هذان الاخوان بسياسة الدولة المغولية ستّ سنوات واحرزا شرفاً وسيماً (٥٦١) يفوق الوصف .

غير انهما أغمضا عن مراجعة ارغون ملك الملوك وجعلا يحشدان الاموال والخيل والذهب والفضة والامتعة . واضطر الملك ان يقيم لخدمته امراء يركبون معه اينما ذهب ويواكلونه ويشاربونه ويطلعونه على ما يحدث في العسكر وفي البلاد القاصية والقريبة . وذكروا له من الجملة ان بوغا لا يزال يتفاخر ويتباهى ويستنقصهم ويتدين في الامور مستبدّاً كيفما شاء . وهكذا جعلوا يناقضونه ويعارضونه لدى ملك الملوك في كل ما يأمر به او ينهي عنه .

ثم ان ثلاثة من اعيان بغداد قصدوا العسكر الملكي وطفقوا يتظلمون من آروق ويصرحون بأنه لا يزال يتعدّى ويظلم ويجمع لنفسه ما يجمع من الاموال . عند ذلك أمر الملك ان يُحتفظ باولئك الثلاثة مكرّمين ريثما يصل آروق الى العسكر . اما بوغا فبعث وقبض على ثلاثتهم وقتل هامهم دون فحص او سؤال ودون اذن القضاة . فاستفظعت الدولة هذا العمل وأتيح لخصوم الاخوين ان يترصلوا في مناهضتها حتى أصبح كلامهم مقبولاً ومصدّقاً لدى الجميع .

اما ابناء الملوك فقد شق عليهم قتل اولئك الاعيان الثلاثة وسخطوا جداً . الّا ان بوغا استمالهم اليه بالرشوة والتحف . وما مر القليل حتى نهض سعد الدولة اليهودي وهو حاكم بغداد وقصد الامراء في العسكر وقال لهم : اذا صرفتم آروق عن الرجوع الى بغداد فاني اتعهد بكل ما يلزم العسكر حولاً فحولاً . وللحال صدر الامر بعزله (٥٦٢) وتولية اليهودي مكانه . واصبح عرش آل العبّاس وحكمهم في قبضة ذلك اليهودي . هكذا ذلّت الامة العربية بسبب سوء تصرّفها وعتوّها المتواتر .

وتتابعت الشكاوى على آروق منذ إذ وسار من الجملة عبد المومن الفقيه الفارسي الى المعسكر وقرر ان آروق وامراءه وحكامه وكتابه قد اخربوا جميع المدن والبلاد التي بولايته . فاذا قرأه امراء التتر وساعدوه فهو يحصل لهم مائة ربوة من الدنانير الذهبية . فاستصوبوا حديثه ووافقوه في مأربه الخبيث واستمهلوه حيناً .

اما بوغا فلما شعر بان الشكاوى عليه وعلى اخيه قد احرزت القبول والرضى خامره الشك وعاد ادراجه وتقارض ولزم بيته. وكان اذا زاره الامراء في مرضه هذا يتأوه ويتأسف امامهم على ما اصطنعه عند ارغون اذ انقذه من احمد ولم يكافه مكافأة حسنة . ثم جعل يفتكر في الايقاع به . وكشف سره هذا لبعض الاقطاب الذين وافقوه علماً منهم بانه رجل محنك وقد توصل بدهائه الى تعزيز ارغون وخذل احمد وفشله . اما ارغون وقد عرف ذلك معرفة تامة فجعل يتوقى بوغا ويحسب له الف حساب . غير ان الامراء الملازمين له اطلعوا على فكرة بوغا السيئة وعرف بوغا ان مكره قد افتضح . فحصل في خوف شديد وحار في امره واستعجل فامتطى حصانه واتهزم يريد معسكر الخاتون الجي الكبيرة كي يستغيث بها . ولما سمع ارغون وامراؤه بركبوا هم كذلك وتتبعوه حتى ادركوه وقبضوا عليه واستعسروه فأقر بالنسبة الا انه قرر بانه لم يتوخ ايقاع الاذى بتلك الملوك بل (٥٦٣) بالامراء الذين ما برحوا يعادونه ويتهمونه ويستحقرونه . غير انهم لم يسمعوا له بل انقضوا عليه وقطعوه ارباً ارباً وتم ذلك يوم الجمعة ١٤ كانون الثاني ١٦٠٠ لليونان (١٢٨٩ م) ونهبوا بيوته واملاكه ونقوده واجزوا على اولاده وعلى كتبة اسراره .

وقتل في اليوم ذاته القسيس شمعون الطبيب وابو الكرم الفقيه النصراني الاربيلي وغيرهما من المغول الذين لم نعرفهم . وبعد هذا غادر بيتميش البطل الشجاع المعسكر الملكي وانطلق في ايام يسيرة من موغان الى آمد وحشد جيوش المغول وانقلب الى الموصل يريد آروق . وكان هذا يمشي في الضواحي يأكل ويشرب في ايام عيد المغول المعروف بعيد البياض وهو يجهل ما حدث لاخيه بوغا واهله . وما ان شاهد الجنود محيطين به حتى حار في امره وركب حصانه واخذ امرأته واولاده ولاذ بقلعة الكشاف الصغيرة الى ان أصبح الصباح .

وعند ذلك ارسل بيتيش يقول له : لا يجمل بك ان تعصى . فاجابه آروق اني لم اقصد هذه القلعة قصد العاصي المتمرّد ولكني لم اعرف ماذا حلّ ولاي سبب احتشد هولاء العسكر ههنا فأخبروني لاكون على بصيرة . فلما بيتيش من باب القلعة وقال له :ان يوغا اخاك قد خان الملك وصدر الامر بقتله واقبلنا لنقبض عليك ونذهب بك الى خدمته ولسنا ندري هل يقتلك ام لا فهو يعرف . عند ذلك فتح آروق باب القلعة وانحدر هو واهله وقال : أمر الملك على الراس والعين. فاوثقوه بالقيود وارسلوه محفوظاً الى المعسكر وصدر الامر بقتله هناك . وتمّ القبض عليه يوم الاثنين من صوم نينوى سلخ كانون الثاني (٥٦٤) من تلك السنة . وجرى قتله بعد اسبوع .

اما الفقيه الفارسي الذي افترى على آروق وقرّر ان يحمّل مائة ربوة من الدنانير يجمعها من الملوك والكتّاب والحكّام كما سبق القول فقد تولى الامير بيتيش أمر محاسبتهم وانزال العقوبة دون شفقة بمن يستحقها منهم .

اما مسعود بن قوطي واخوته وانسباؤه فلم يكونوا يراجعون في المعسكر الملكي الا يوغا وحده لا يكترثون لسائر الامراء ولا ينزلون ليحيّوهم بالسلام. معتقدين ان اوامر يوغا تعلو على اوامر جميع الامراء . ولذا تشبثوا بطاعته دون غيره . وهذا ما حمل الجميع على ان يبغضوهم ويلوموهم . وطالما نصح لهم اولئك الامراء كي يؤدوا الطاعة والخضوع والانقياد للامراء الملازمين للملك ولا يتشبثوا بطاعة الواحد ويخالفوا البقية . اذ يتفق ان ذلك الامير الواحد الذين يثقون به تعرض له محنة ولا يسعه من ثم ان يساعدهم .

بيد ان مسعود بن قوطي غير الناضج بعقله وغير الرزين باعماله جعل يقول متفاخراً : اني لست ابغي ان اعيش دون يوغا فاذا مات يوغا فضّلتُ الموت على الحياة بعده . وقد صح ذلك لانه يوم القبض على آروق اقاموا حرّاساً يحرسون مسعوداً ريثما وصل عبد المومن الفقيه الفارسي . واذ ذاك ثار الاضطهاد والغضب على النصارى المظلومين وجعلوا ينكلون دون شفقة بهم ولا سيما بتاج الدين بن المختص (٥٦٥) صاحب اربيل . فقد اوثقوا رجليه ورفعوه نحو ذراع عن الارض ونشروا يصفعونه حتى خارت قواه ثم انزلوه وجعلوا يصفعون صدره وظهره حتى أمسى على آخر رمق . ثم احضروا نارًا في طستٍ ووضعوه على

صدره . وانزلوا به اعذبة فادحة حتى استنفذوا منه نحو خمسين الف دينار. وقد ألقى بذاته غير مرة في دجلة لعله يفارق الحياة وينجو من الاعذبة والضربات . اما مسعود المذكور فلم يصفعوه بسبب مرضه وخوفهم ان يقضي ويضيع ماله معه . فجعلوا يمدونه مواعيد فارغة مصرحين بانه اذا دفع لهم عشر ليرات من الذهب أبقوه مكرماً معززاً . فغلب على ظنه انهم لن يؤذوه كرامةً له. ولهذا ظلّ يباغل ويحادثهم بكلمات فظة. فجعلوا يضربونه تارة وطوراً يهددونه حتى استحصلوا منه ما طلبوا ثم مضوا به الى اربيل وقتلوه يوم الاثنين من اسبوع الآلام رابع نيسان من تلك السنة . واعتقلوا ابنه . وانهزم الى قرية بيت سحرايا اخوه شهاب الدين ولم يدركوه . وبسببه قتل دبيس احد اهالي تلك القرية وقد سألوه عنه فانكر وقال اني لم اشاهده . فقبضوا على فتى اقرّ بذلك وأطلعهم على مكانه . فاستاقوا دوبيس المنكود الحظ الى الموصل واجهزوا عليه ورجمه الاهالي بالحجار .

وبعد ما قتل دبيس ضج الواصلة على صبيّ نصرانيّ وادّعوا انه فاجر يرتكب الفحشاء مع النساء المسلمات فبطشوا به وجرّوه في شوارع المدينة وكوّموا عليه الحطب واحرقوه واخذوا راسه (٥٦٦) وطافوا به على ابواب الكنائس وهم يسخرون بالمسيحيين. على ان ما احتمله الواصلة في هذين الشهرين من العذاب والاضطهاد لا يتيسر للسان ان يعبر عنه ولا للقلم ان يصفه . ألا ايها الرب العادل استيقظ وانظر دما. عبيدك تبراق دون رحمة وارث لحال كنيستك ورعيتك التي ينهشها المضطهدون !

على انه يوم قتل يوغا وزحف بيشيش الى بلاد الغرب وتوجه المغولي ليأخذوا آروق اضطرب اهالي سورية وشملهم الخوف والهلع ظانين ان المغول مزمعون الزحف اليهم . فاستجمعوا قواهم وحشدوا جيوشاً ضخمة واستعدّوا للمبارزة . ولما استيقنوا ان المغول منهمكون في شؤون دولتهم لا يفتكرون في غيرهم عوّلوا على الزحف الى طرابلس بساحل البحر المتوسط وحاصروها حصاراً شديداً. فارسل الاهالي يستنجدون بافرنج في جزيرة قبرس فاقبل منهم في السفن عددٌ قليل. وما ان وصلوا حتى تشجع الطرابلسيون ووقفوا على الاسوار وحاربوا الخوارج حرباً عنيفة استغرقت زهاء ثلاثة اشهر. غير ان الخوارج تقوّوا

وخرقوا السور بالمنجنيقات فانهزم اغلب المسيحيين الى السفن وعادوا الى قبرس .

وبعد هذا دخل العرب المدينة واستلوا السيوف واشتبكوا ببقية الاهالي وحدثت معركة هائلة باد فيها الكثيرون من الطرفين . ثم سخط العرب كل السخط وقوّضوا المدينة المنكودة الحظ ولم يدعوا برجاً او كنيسة الا اخربوها واحتووا على اموال طائلة تفوق حد الكثرة واعتقلوا من البنين والبنات جمهوراً غفيراً وبطشوا بكهنة وشمامسة ورهبان وراهبات لا يحصى عددهم وتركوا المدينة خاوية وانقلبوا . وتمّ ذلك في نصف نيسان (٥٦٧) من السنة ١٦٠٠ لليونان (١٢٨٩ م) .

وفي هذه السنة عينها احتشد زهاء الفي فارس من لصوص سورية وزحفوا الى نواحي سنجار وباعربايا لا يغزون ولا يسلبون حتى شارفوا قرية فيشابور على ساحل دجلة وباتوا هناك . ثم استيقظوا ليلاً وعبروا النهر وتوجهوا نحو واسطو قرية الناطرة الكبرى وانقضوا عليها فجر الاحد ١٤ آب . وغلب على ظن الاهالي ان اللصوص قليلون فخرجوا ليناوشوهم . غير انهم لما شاهدوا كثرتهم عادوا الى القرية ولاذ بعضهم بالكنيسة فنجوا وتشتت البعض الآخر في البساتين والكروم . اما اللصوص الخبثاء فقد احتلوا القرية وانتشروا في القرى السبع المجاورة وعاثوا فيها باجمعها واجهزوا على اكثر من خمسمائة نسمة واعتقلوا زهاء الف من النساء والبنين والبنات واستحوذوا على الشيء الكثير من الاموال والغنم والبقر وانقلبوا عائدين في ذات الطريق التي قدموا منها وساروا هادئين مسرورين حتى بلغوا نهر الخابور وعليه جسر ضيق فمكثوا مدة بسبب كثرة الغنائم والاسرى الخاثري القوى . وبلغ امير المغول في الموصل خبرهم فبادر في عساكره اليهم وشاهدوا اغلبهم قد عبروا الجسر في الغنائم. فاجهزوا على البقية الباقية واستردوا نحو ثلاثمائة من النساء والبنين والبنات وعادوا فردوهم الى اصحابهم وذويهم .

وفي هذا الصيف عينه زحف نحو الفي راكب من سورية الى بلاد ملطية والحصن فسمع القائد كربندا وحشد جيوشه وسار الى مناوشتهم فانكسر وهلك من اصحابه جمهور غفير واعتقل بعض اصدقائه وانسبائه (٥٦٨) وابناء اخوته . وأفلت هو واربعون من رجاله وتوجهوا الى الدار الجديدة التي ابتناها في بلد الحصن الذي يقال له بالارمنية حسنونا . واذ كانوا جالسين مغمومين

مهمومين يفتكرون في انقاذ الاسرى خطر ببالهم ان تلك المركة انما حدثت بسبب النصارى فيجب ان يؤخذ منهم مقدار من المال يفتدون به أسراهم . وجعلوا يفرضون على كل مدينة وبلدة كمية من الذهب قدر امكانها . غير ان العدل الالهي لم يحتمل ما اعتزموه فأهبط عليهم فوراً تلك الدار الجديدة واهلكهم قاطبةً . ولم ينجُ الا حارس الباب لا غير اذ سقط الجسر على جنبه ودفعه خارجاً فظل حياً يرزق .

وفي افتتاح السنة ١٦٠١ لليونان (١٢٩٠ م) وجه آلا الميش صاحب ميافرقين عدو النصارى فقتل غيلةً صاحب موش الرجل المسيحي الارمني ونكّل برهبان دير مار قوما . فنهض احد اولئك الرهبان مستبسلاً وقصد المعسكر التتري وشكا آلا الميش المذكور . واتصل بملك الملوك نفسه وحادثه بدالة تامة واصغى الى حديثه . وفيما كان راكباً مجتازاً يوماً بجسر نهر كودر قبض الراهب على لجام فرسه وأقسم انه لن يتركه ما لم يأمر باهلاك آلا الميش . فأمر الملك ان يُقتَل للحال .

وفي تلك الايام قبض فرج الله الفقيه والكاتب القبطي الجليل في الموصل فتضح خيانة عبد المومن الفقيه الفارسي المذكور آنفاً مصرحاً بانه قد قتل مسعود بن قوطي ظلماً وتنكل بالنصارى كثيراً وحشد لنفسه اموالاً وافرة . فأمر ملك الملوك ان يبحثوا عن ذلك ولما ثبتت خيانته أصدر الامر بقتله وانتقم منه العدل الالهي سريعاً . واطلع ملك الملوك مذ ذاك (٣٦٩) على مكر العرب وقحتهم وعلى تصرفهم بالخداع والرياء في معاملاتهم . وسمى سعد الدولة اليهودي والي بغداد رئيساً للكتّاب اعني صاحب الديوان في كل اصقاع المملكة . ونهى نهياً مطلقاً عن اقامة كاتب مسلم . فتغاظ لذلك بغض العرب وشرهم . وما ان تولى ذلك اليهودي حساب الدولة حتى وجه اخاه الى بغداد ليقوم بمقامه ووجه اخاه الثاني مع تاج الدين بن المختص بثابة قائد عام في الموصل وماردين وديار بكر جميعاً . فخاف منهم مباذر بك الامير الكردي المتولي في اربيل وظن انهم سيسيئون اليه وتوجه حالاً الى المعسكر معتقداً انه اذا احتظى لدى ملك الملوك يزول عنه كل خطر . غير انه لما سار اليه وجه اولئك الامراء الشكاوي عليه ونوى الملك ان يفتك به ولكنه علله ساعةً وبعث سفيراً تحت السر يسعى

للقبض اولاً على اولاده واهله وعشيرته كي يستأصلهم كافةً ثم يقضي عليه بالموت كذلك .

بيد ان امرأة اطلعت على السر وقصدت مباذر بك الكردي ليلاً واخبرته بذلك فنهض للحال دون مانع وركب هو وخادمه وفرّا من المعسكر كالعصفور من الفخ واستعجلا في السفر حتى سبقا ذلك السفير ووصل مباذر الى بيته ورحل اهله واملاكه ولاذ بجبالٍ عاصيةٍ لا تقهر . ولما وصل السفير اخذه الذهول والعجب مما جرى . اما ملك الملوك فقد احتدم سخطاً (٥٧٠) لا فرار الكردي من بين يديه بل خصوصاً ليطّلع على الذي نقل اليه الخبر من المعسكر . فارسل الجنود ليحاصروا جبال الاكراد ويغلقوا الطرق دونهم . وكان الثلج قد تراكم فيها فلم يتمكنوا من الاعداء وانقلبوا عائدين الى السهل حيث كان يقيم الاكراد الفلاحون المساكين المؤدون الضرائب . فسبوا وقتلوا ونهبوا واحرقوا بيوتهم وذخائرهم . وألحقوا الاضرار خصوصاً بالنصارى المساكين الجبليين المعروفين باسم قياخية اعني قاطني الكروف . فقد قتلوا الرجال منهم دون شفقة واستأسروا النساء والبنين والبنات وانتهبوا من ذخيرتهم ما امكنهم حمله واحرقوا ما تبقى . ذلك ما حمل العرب على بغض النصارى كافة مدّعين بانه لولا هؤلاء الجبليون لما اساء المغول الى الاكراد قطعاً . وغير خافٍ ان اغلب المغول في زماننا قد دانوا بالاسلام واصبحوا يدافعون عنهم اللهمّ الا اذا اضطرّهم الزعماء ان يقاتلوهم ويبطشوا بهم .

ولما اقبل الصيف وارتحل المغول من بلاد الموصل واربيل انحدر الاكراد من قمم الجبال واحتشدوا الوفاً وربوات واقبلوا الى السهل فانهزم الاهالي ولاذوا بالمدن والقلاع . وقصد جميع اهالي اربيل القلعة فحاصرهم الاكراد ولكن العناية الالهية اطفأت نيران سخطهم وخيّبت آمالهم فكانوا كلما هجموا ليناوشوهم خسروا سبعة او ثمانية من رجالهم . وظلوا كذلك مدة ١٧ يوماً .

واتفق اذ ذاك ان مائتي رجلٍ من الترنج (٥٧١) ركبوا نهر دجلة ويمموا الموصل تلبيةً لطلب ارغون ملك الملوك قاصدين الذهاب الى بغداد ليبيّتوا المراكب وينحدروا الى البصرة ومنها الى بحر النيل ليقاتلوا المصريين . وسار زهاء سبعمائة منهم في البر واقاموا في بغداد كل الشتاء ريثما اكتمل غرضهم . وقد جرى

لهم هناك حادث يستحق الاعتبار سنورده فيما بعد .

والآن فلنعد الى خبر الاكراد المذكورين سابقاً . فهؤلاء لما سمعوا ان الفرنج بلغوا الموصل غلب على ظنهم انهم اتما وافوا لمناوشتهم فتركوا القلعة وتفرقوا شذر مذر . ولما نجا الاهالي الذين في القلعة من شرهم قصدوا التوجه الى قرية بيت صيادة ليأتوا باهلها اليهم فينقذوهم من الاكراد . غير انهم لو تركوهم في قريتهم لما اصابهم أذى. هكذا اتحدر ماتنا رجل من اولئك الجبليين القياخية من القلعة كما قلنا وقصدوا بيت صيادة لا يتوخون من ذلك كله الا الاستفادة منهم .ولما وصلوا اليهم تزنوا عن احصنتهم وقدموها لاولئك الفلاحين وساروا هم امامهم مشياً على الاقدام. وتفرقوا وتشتتوا وأصبحوا بلا قائد يقودهم حتى شارفوا المدينة . وعند ذاك انقضّ عليهم الاكراد الذين كانوا يكمنون لهم وينتظرونهم فقتلوا فريقاً منهم واستأسروا اغلبهم وانتهبوا كل ما صادفوه.

اما لصوص سورية فلما بلغهم ان الاكراد يحاصرون قلعة اربيل غلب على ظنهم انهم بعد ما يختلونها سينهبون ويقتلون ويستأسرون ويزحفون الى سورية. فاحتشد زهاء الفي رجل واقبلوا ليساعدوهم ولكنهم لم يصادفوهم ولم يتجرأوا ان يهاجموا القلعة لخوفهم من ان يبطش بهم اهلها وهم اشداء اقوياء في الحروب. غير ان مائتي رجل منهم حاولوا ان يجتازوا فافترقوا من اصحابهم ودنوا من (٥٧٢) باب القلعة. فانحدر اليهم اصحابها وناوشوهم وانتزعوا منهم بعض افراسهم وعادوا الى قلعتهم . عندئذ انقلب اولئك اللصوص فارغين خائبين ولم يستفيدوا شيئاً من قدومهم ولا من الاكراد المجاورين. وتمّ ذلك يوم الثلاثاء ٢٧ حزيران.

وفي تموز تلك السنة سار الى حصن زياد راهب ارمني تقي من الرهبان الذين يطوفون البلاد ويعظون المؤمنين ويحرضونهم على التوبة والفضيلة والاقرار بخطاياهم . واقام هناك شهرا وسُر المسيحيون بمواعظه كل السرور وجعل الفتيان يلازمونه ويجتمعون اليه ليلاً يأكلون ويشربون ويتحدثون باخبار القديسين وجهاد الشهداء . وما ان سمع العرب ذلك حتى حقدوا عليهم وساروا فريق منهم ليلة الجمعة واخذوا كلباً ميتاً علقوه على باب المسجد الكبير . ولما اصبحوا وذهبوا ليصلوا وشاهدوا الكلب الميت سخطوا كل السخط وادّعوا قاطبةً بان ذلك الراهب الارمني والذين يجتمعون عنده هم الذين فعلوا هذا الفعل المنكر. فامتشقوا

السيوف وقصدوا الراهب المظلوم وبعض اهالي المدينة الذين عثروا عليهم وذهبوا بهم الى دير الباعوث وخاضوا قلالي الرهبان ونهبوا كل ما فيها واجهزوا على الراهب المسكين وعلى اثنين او ثلاثة من الاهالي وانقلبوا الى المدينة. وقصدوا بعض بيوت المؤمنين المسيحيين ونهبوا كل ما فيها وصفعوا الكثيرين من الكرام الاجلاء صفعات مؤلمة . وامست المدينة شهراً كاملاً كسدَ فيها الاخذ والعطاء والبيع والشراء .

وفي تلك الفتون قوي أمر فرج الله الفقيه القبطي الذي فضح خيانة الفقيه الفارسي كما ذكرنا وطفق يتباهى ويتفاخر لكونه نجح في تلك القضية (٥٧٣) وقصد معسكر التتر ولفّق الدعوى على تاج الدين بن المختص وذكر انه قد حشد اربعين ربوة من الذهب لنفسه . وما ان سمع اليهودي صاحب الديوان حتى تجبّر وتكبّر وقال: ان ثبتت الدعوى على تاج الدين فلا بد من ان تثبت كذلك على اخيه الذي فاقه في الاستبداد وفي الاخذ والعطاء.. ومن ثم جعل يلقّن فرج الله القبطي ويقول : ان هذه الدعوى لا تضر تاج الدين فحسب بل تضر اخاه اكثر منه . غير ان فرج الله التاعس الشقي لما عرف انه يتعذر عليه مناهضة اليهودي ومقاومته وأنه اذا عدل عن الدعوى حكم عليه امراء المعسكر وقتلوه استند الى مشورة بعضهم فكتب بخط يده مصرّحاً بان ما قاله انما قاله في حالة السكر وان ذينك الشخصين اعني تاج الدين وصاحبه لم يتعديا على احد ودفع الورقة الى صاحب الديوان . وهذا بدوره التقفها ومضى بها الى ملك الملوك وقال له : ما رأيك في رجل حدثك أمس حديثاً انكره اليوم بخط يده ؟ فقال الملك : انه يستوجب الموت بلا ريب . وهكذا قُتل فرج الله حالاً .

ثم ان اليهودي صاحب الديوان ذكر لملك الملوك ان لفرج الله في الموصل رجلين اخبث منه . فامر الملك كذلك ان يُقتلا وارسل الى الموصل بدلاً منهما المؤيد بن المؤيد الكاتب وامين الدين بن المحتسب الاربيلي .

وبعد ايام وجه التتر من المعسكر الى سعود الامير متى الشجاع عمود المسيحيين بالموصل كي يجبي من اهاليها الجزيه كالوف عادة المغول . غير ان السعودين (٥٧٤) خصوم المسيحيين استفظعوا تسليط رجل مسيحي عليهم فاستلوا السيوف والخناجر واغاروا عليه في الدار التي كان مقيماً بها وبطشوا به يوم

الاثنين ٣١ تموز من تلك السنة . فسارع اولاد متى المنكود الحظ الى المعسكر وعرضوا على ملك الملوك ما جرى فأصدر الامر بقتل القاتلين واستصفاء عشر ربوات ذهباً من السعوديين . وما ان وصل الوفود الى المدينة حتى جهزوا على سبعة او ثمانية من وجهائها . ونفذوا ما امر به ملك الملوك .

وفي افتتاح السنة ١٦٠٣ لليونان (١٢٩٢ م) رُفعت الدعوى على رجل كردي يقال له سجال الدين الازخيّ من بلد جزيرة فردو والتجلى امره لدى البطل بيتميش فقتل ببلد الموصل هو واحد ابنائه .

وفي تلك الايام توجه بعض الاسمعيليين بزي التجار الى الموصل يحاولون الوثوب الى امرائها وزعمائها والبطش بهم كي لا يتولى فيما بعد نصرانيّ او يهوديّ في بلد من البلدان واذا تولوا فلا بد من قتلهم سرًّا بالحيلة . ولما بلغوا الموصل ونزلوا في احد الفنادق كعادة التجار جعلوا يتخاصمون معاً ويتباحكون . فارتاب في امرهم بعض من سمعهم وسارعوا فأخبروا الامراء فبادروا اليهم وقبضوا عليهم وجعلوا يضربونهم فما كان من شيخهم الا ان قال لهم : لا حاجة الى الضرب فنحن ثلاثة رجال اتينا لنقتلكم وقد ذهب ثلاثة آخرون منّا الى بغداد ليقتلوا اليهودي الذي هناك وثلاثة توجهوا الى المعسكر ليفتكوا بصاحب الديوان . وللحال أجهزوا على الثلاثة شنقاً وارسلوا الى بغداد من قبض على الثلاثة الآخرين وبطش بهم . اما الذين ساروا الى المعسكر فقد ادركوا غايتهم دون عناء وتعب . فيا لغرابة الطبع البشريّ فانه اذا ضلّ في أمر من الامور واكرم الدني . ورفعه فلا بد من انه بعد زمن وجيز (٥٧٥) ينتضح امره فيندم على غلطه ولات ساعة ندم !

على انه مذ ظهر العرب حتى اليوم لم يتزنّ يهوديٌّ واحدٌ في بلادهم فكلهم اما دباغون او صبّاغون او سكّافون . واذا كان بينهم طبيبٌ او كاتب فانما يقيم في اماكن لا يرضى الاقامة فيها غيره . على ان المغول لما استولوا على بلاد العرب لم يخصّوا بالاكرام من يستحق الاكرام بل لم يولوا المدن التي احتلّوها من تسلسل من الاسر الملكية . اذ لا فرق عندهم بين العبد والحرّ والمؤمن والكافر والمسيحيّ واليهوديّ فهم يسوسونهم بصولجان واحد . واذا اختلف اليهم احدٌ وقدّم لهم شيئاً من المال التقفوه منه وعزّزوه ولبّوا طلبه مهما كان .

سواء أكان متضلعاً خبيراً ام جاهلاً غبياً . انما يطلبون خدمة متواصلة وخضوعاً وانقياداً تماً وكفى .

فهذا اليهوديّ المذكور قد ارتقى في عهد ارغون ملك الملوك اعظم الرتب وأصبحت الشؤون السياسية بيده وحده . فتقاضى عن مراجعة اقطاب العسكر ونهاهم عن الاخذ والعطاء. وجعل يستحقر الامراء الاولين والنوّاب جميعاً . لا يتجرأ احد منهم ان يقصد باب البلاط في شأن من الشؤون المفيدة او الضارّة اللهمّ الا اذا كان يهودياً . ولهذا السبب تقاطر اليه جماهير اليهود من مختلف الاقطار وجعلوا ينادون ويهتفون بحياته وهم يقولون : انه لقد رفع شأننا واقام لنا قرن خلاص ورجاء ومجد. وبينما هم على ذلك من التفاخر والتباهي اذ (٥٧٦) شعر الملك ارغون بداء الفالج وتقلب في مرضه هذا زهاء شهر . وكان ذلك اليهودي يفرغ كل الجهد في معالجته . اما الامراء واقطاب العسكر الذين كان يستحقرهم فقد قطعوا الرجاء من بقاء ملك الملوك في قيد الحياة معتقدين ان ذلك اليهودي هو الذي عجّل موته بسبب سوء تصرفه وراحوا يتأزرون كالاسود حتى قضى الملك نحبه يوم الاربعاء سلخ كانون الثاني ١٢٩١ لليونان (١٢٨٠ م) .

وما عتم ان سخط الله تعالى على اليهود في كل الامصار فقد بطش التتر اولاً بسعد الدولة صاحب الديوان اليهودي المذكور . ثم وجهوا وفودا الى بلاد المغول كلها فقبضوا على اخوته وانسبائه وأوثقوهم بالقيود ونهبوا اشياءهم واخذوا ابناءهم وبناتهم وخدامهم وجواريهم وكل اموالهم . وبعد ان قتل منهم من قتل عادوا الى حالتهم السابقة. فالذي كان في الامس يحل ويربط ويوقل بالحلل الملكية أمسى اليوم متردّياً مسحاً خلقاً ويداه موسختين اعني امسى صباغاً لا كاتباً ومستطيباً لا آمراً ومسلطاً . ويقصر اللسان عن ذكر كل ما حدث لهم من الاسواء. ففي بغداد على اثر قتل اليهودي المذكور ثار العرب عليهم وتسلحوا وقصدوا محلتهم الملاصقة لمحلة المسلمين وحاولوا الدخول اليها للنهب والسلب . فناهضهم اليهود مناهضة قوية وقتل من الفريقين من قُتل وانتهت المعركة .

وذكروا ان اليهودي المذكور لما عظم شأنه وعلا كعبه ارسل فابتنى له بلاطاً في تبريز واخفى فيه خوابي كثيرة مملوءة ذهباً وفضةً اطّلع عليها التتر عندما اخذوا ينكلون باهله وأنسبائه . وقد استغرق حكمه (٥٧٧) زهاء

سنتين لا غير ثم قُتل واضمحل ذكره وأمسى اليهود بسببه منبوذين مرذولين في الدنيا كلها .

بعد ارغون بن اباقا اخوه كيخاتو الذي دُعي ارتاجين تورجي

لما جلس ارغون على عرش الدولة التترية سار اخوه كيخاتو في زمرة من الجنود ليحافظ على البلاد المجاورة لبلد الروم وظلّ مقيماً هناك مدة حياة اخيه فاستطاب البلاد ولم يرَ ان يغادرها حتى توفي ارغون واجتمع اولاد الملوك قاطبة وقدّروا ان يخلفه في العرش الملكي على كره منه لانه كان في ولايته راتعاً في مجابح الطمأنينة والسلام يأكل ويشرب ويتقلب في الملذات الدنيا . ولا سيما لانه شاهد الملكين اللذين سبقاه توفيا في شرخ الشباب ولم يشبعا من هذه الحياة . ذلك ما حمله على التخلي عن عرش المملكة والاكتفاء بالبلاد التي كان يتولاها . وبعد هذا عاهد التتر وعلل اولاد الملوك والاقطاب بانه في السنة القابلة يعود فيستوي على التخت ، ثم تركهم وعاد الى بلاد الروم فشاهد التركمان الاوغيين المنتمين الى قرامان يتعدون على المغول سبياً ونهباً فحشد جنوده وزحف الى قمة طنكرلو الشهيرة واحتلها بالسيف وأجهز على خلق كثير وبطش بسائر الاوغيين المنهزمين الى القرى بطشاً تاماً .

على انه لما كان اخوه ارغون (٥٧٨) في قيد الحياة كان وفود الفرنج يتقاطرون اليه قادمين من قبل البابا الروماني والملوك الفرنج ليتفقوا معاً ويزحفوا الى محاربة المصريين الذين حنوا ورفسوا وجعلوا يضطهدون النصارى . وقد وجه ارغون كذلك الى الحبر الروماني بثابة سفير الربان صوما الراهب الايغوري الذي قدم مع الجاثليق مار يبب الآها من بلاد التتر[1] الى زيارته . ولما وصل الربان الى رومية قرّر مع البابا ان يزحف التتر والفرنج معاً لمناوشة العرب . غير ان ذلك الاتفاق لم يتم .

اما كيخاتو فلما سار من بلد الروم الى جبال ارمينية الكبرى اجتمع ابناء الملوك ثانيةً واقطاب المغول وأجلسوه على سرير المملكة في ٢٩ حزيران

١) اثبر الاب بولس بيجان النازري تلك الرحلة عام ١٨٨٨ وذكرناها نحن كذلك في كتابنا « الحروب الصليبية في الاثار السريانية » صفحة ٢٣٣ = ٢٠٢

١٦٠٣ لليونان (١٢٩٢ م) . ولما سمع المصريون نبأ وفاة الملك ارغون حشدوا ربوات من الجنود واقبلوا الى عكّة مدينة الفرنج الكبرى الشهيرة على ساحل البحر المتوسط وحاصروها حصارًا شديدًا مدة شهرين . ولم يشأ الفرنج بسبب عنفهم وكبريائهم ان يطلقوا تجاههم ابواب المدينة ليلَ نهار لكنهم جعلوا يخرجون اليهم جيالة راكبين ويحصدونهم حصاد المنجل للقمح . وبلغ عدد القتلى العرب فيما قيل عشرين الف نسمة . وظل الفرنج يحرسون المدينة حتى اصيب الكونت قائدهم بسهم أودى بحياته وعند ذلك ارتخت عزائمهم وتقوّى المصريون فاقاموا زهاء ثلاثمائة منجنيق على السور الذي في البرّ وجعلوا تحت كل برج زهاء الف من الكمناء ينقبون الارض وقوضوا برجاً او برجين .

واخذ الاخوة الدواوية وسائر الزعماء يدخلون الدور الحصينة ويحاربون العدوّ . ولما احتل العرب (٤٧٩) تلك المدينة التاعسة طفقوا يلاطفون من في الدور لينصرفوا دون اذى وينحدروا الى البحر ويذهبوا هم ونساؤهم وبنوهم وبناتهم ويتركوا جميع اثاثهم واموالهم . غير انهم ما كادوا يفتحون الابواب ويدخلون حتى ابصروا فتياناً وفتياتٍ كالاقمار فتصدوا لهم . عند ذلك ثار ثائر الفرنج واستلوا سيوفهم ووثبوا الى العرب فالتحمت المعارك بين الفريقين وقتل من الجانبين جماهير غفيرة تفوق حد الكثرة . وهكذا قوّضوا تلك المدينة الجميلة الحصينة ولم يدعوا للفرنج في ساحل البحر موضعاً يستندون اليه برأسهم . وتمّ ذلك في نيسان السنة ١٦٠٣ لليونان (١٢٩٢م) .

وبعد هذا احتشد المصريون كذلك وزحفوا في جيوش ضخمة الى قلعة الروم التي على شاطئ الفرات واحتلوها في مدّة عشرين يوماً وقتلوا وسبوا ونهبوا واستأسروا جماهير وافرة من البنين والبنات . ثم قبضوا على الجاثليق الارمني وعلى جميع رهبانه وذهبوا به الى اورشليم مكرَّمًا يوم السبت ٢٨ حزيران من السنة المذكورة وما زال مقيماً هناك . وروى بعضهم انهم صلبوه واوثقوا الذين معه واستاقوهم الى مصر . غير اننا لم نثبت الامر بعد . والصحيح ان الجاثليق قضى نحبه في سجن دمشق . ولما اطلع الارمن على ذلك اصطفوا رجلًا موافقاً ورقوه الى الرتبة الجاثليقية وجعلوا سيس مركزًا له .

اما كيخاتو فلما استتب له الملك انصرف الى اللهو والنهم والخلاعة لا

يعنيه امر المملكة وجعل يستدعي ابناء الاعيان وبناتهم ويسافحهم دون حياء وخجل . وافضى الامر بفريق من العفيفات الشريفات النبيلات الى الهرب منه. وجعل فريق منهن (٥٨٠) ينقلن بنيهنّ وبناتهنّ الى اماكن بعيدة تملصاً من شره ونهمه . وظلّ ينغمس في تلك القبائح زهاء اربع سنوات حتى سقط من عيون ارباب الدولة وأبغضوه بغضاً شديداً .

وفي تموز السنة ١٦٠٥ لليونان (١٢٩٤م) حضر عنده الامير بيدو احد ابناء عمه وكان له ابن جميل الطلعة . وجلسا يوماً يشربان ويأكلان ويمزحان واتفق ان كيخاتو شتم بيدو فبادله بيدو بالشتم وسمّاه ابن زانية . فاحتدم كيخاتو سخطاً وصاح الذين حوله وأمرهم ان يجرّوه خارج المعسكر ويضربوه ضرباً مميتاً . ذلك امرٌ لم يخطر البتة ببال بيدو ولم ينتظر ان يعامله كيخاتو مثل تلك المعاملة مهما اذنب . وبعدما استاقوه وصفعوه واحتقروه جدًّا مضوا به الى خيمة حقيرة وانتووا ان يبطشوا به .

نام بيدو هنيهة في الخيمة ووجه كيخاتو بعض الزعماء ليعاتبوه على ما جرى. فجعل يضحك ويمزح وهو يقول : لا يخطر ببالي ما صار ولست أدري ما تقولون ؟ واين هو كيخاتو ؟ واتوني بخمرٍ لنشرب . وما الذي حدث يا ترى ؟ وكيف وصلتُ الى هذه الخيمة ؟ بمثل هذه العبارات ادهش اولئك الزعماء. وحيّرهم واقنع اغلبهم بحقيقة قوله .

وقد انخدع كيخاتو نفسه واغتمّ حالًا وندم على ما اصاب بيدو من الصفع. وجعل يفرغ محلّ الجهد (٥٨١) ليهدئ روعه ويتلافى ظلامته . وبعد هنيهةٍ وجه زعماء آخرين يسألونه : هل يتذكر ما تكلم به حين سكره ؟ اما بيدو فانكر ذلك مطلقاً وقرر بانه لم يشعر بضربةٍ ما . واستحلف اولئك الزعماء ليصرحوا له هل ما يقولونه صحيح ام يمزحون معه ؟ ولما سردوا حقيقة ما جرى بينهما جعل يتجاهل ويجاهر بقوله لهم : ان محبة كيخاتو لي لا مثيل لها ولولا ذلك لكان حقه ان يفسخني ويقطعني اربًا اربًا . ولما بلغ كيخاتو كلام بيدو هذا اطمأن باله واضمحل قلقه وسار بذاته الى خيمته وعانقه وقبّله وجاء به الى خيمته واحضر ثياباً ملكية وشّحه بها . وتظاهر بيدو بانه مذنب ومسيء ومستوجب للموت . وجعل يتأوّه ويبكي وهو يقول : لست ادري اني اذنبت

واذا كان حدث ما حدث جهلاً مني فارجو ان تلقي لحمي لكلابك ولا تشفق علي.

ازداد كيخاتو حباً وعطفاً وبالغ في السخاء على بيدو حتى انه في تلك الايام الثلاثة أنفق عليه زهاء اربعين ربوة من ذهب وفضة وحلل مذهبة فاخرة ومناطق مرصعة بالياقوت والحجار الكريمة هذا سوى الخيل والبغال والافراس. على ان آل كيخاتو جعلوا يلومونه ويقولون له: كان الاجدر بك ان تتحاشى احتقار بيدو وان لا تدفعه الى اناس يسخرون من شعره ويصفعونه ويجرحونه. واذ قد صار ما صار فالهدايا لا تفيده والتملق لا ينفعه. بل يجب ان تتحذر كل الحذر منه. وكان فريق آخر يقول له: ان الخليق بك ان تقضي عليه قضاء مبرماً والا فسيبدو منه ما لا تحمد عاقبته. وقال له بعضهم كذلك: اياك ان تنيط به خدمة من الخدم (٥٨٢) والاحرى ان يبقى طول حياته مأسوراً كي لا يمدّ يده او يؤذي احداً البتة.

غير ان كيخاتو لفساد اخلاقه وخبث نياته وانهماكه في قضاء أوطاره تجرأ ان يقول لبيدو اني احبّ ان يكون ابنك في خدمتي مقيماً لدي كرفيق وصاحب. فما كان من بيدو الا ان هشّ وبشّ لطلبه وأمر ان يرسل حالاً من يأتي به. فقال له كيخاتو: كلّا بل اذهب انت عاجلاً الى آلك قبل ان يعرفوا ما جرى بيننا من المشادّة وعند وصولك اليهم وجه اليّ ابنك. فقال له بيدو على الرأس والعين. ثم غادر المعسكر مغادرة المصفور للفخ وجعل ينظر وراءه وهو مستعجل يقطع في يوم واحد مرحلة اربعة ايام حتى وصل الى بيته مطمئناً وأرسل ابنه الى كيخاتو وانتقل هو الى جبال همذان كأنه ذاهب الى القنص. ووجه من هناك رسولاً الى قازان بن ارغون يتظلم ويشكو ويقصّ عليه كلّ ما اصابه.

اما كيخاتو فلم يشعر بذلك كله بل ظلّ كعادته منهمكاً في قضاء وطره ينفق الاموال الطائلة دون حساب. واتفق لسوء الحظّ ان حضر اليه يومئذ صدر الدين الفارسي رئيس الكتاب اعني صاحب الديوان وذكر له ان خزائن الدولة قد فرغت وانه جعل يستقرض ويصرف ولم يبقَ لديه خروف واحد يهيئه لطعام الملك. عند ذلك تولى امر النفقة رشيد الدولة اليهودي ونهض بمهمته نهوضاً مشكوراً حتى انه اشترى بماله ربوات من الغنم والبقر وأعدّ الطعام

والطباخين (٥٨٣) على أن يؤدي له صاحب الديوان ما ينفقه. غير ان الخزانة كانت فارغة خالية فاضطر ان يكتب الى البلاد صكوكاً بطلب النفقات ولم يحصل على شيء . اما اليهودي فقد انفق كل ماله وعجز عن مواصلة عمله واضطر ان ياوذ بالفرار . هكذا ظلت الاحوال ضيقة وتعذر على صاحب الديوان ان ينهض بما يحتاج اليه ملك الملوك من المبالغ الطائلة .

عند ذلك افتكر كيخاتو ان يستنبط عملة جديدة اذ لم يستطع ان يحصل على ذهب وفضة فاصدر امرًا ملكيًا نهى فيه استعمال الذهب والفضة على الاطلاق وانشأ رقعاً من القراطيس ذات علامة حمراء ودوّن فيها لفظة دينار او دينارين او ثلاثة او اربعة او خمسة حتى العشرة واطلق عليها اسم « شاو » . ونادى المنادون في المدن أن كلّ من يبيع ويشتري ويأخذ ويعطي بسوى الشاو يقتل قتلاً . وكل من بيده فضة لا يذهب بها الى الدار التي يطبع فيها الشاو ويأخذ بدلاً منها شاوًا يقتل قتلاً. هكذا تقلب الناس في ضيق شديد وصعوبة شاقة مدة شهرين كاملين حتى أمست تبرز عاصمة المغول كأنها قفراء اذ انهزم اهاليها وتفرّقوا واختفوا وغدت أغلب اسواقها مغلقة . وحصل فيها غلاء وجوع وضيق شديد جداً . ذلك لان الاهالي لم يروا ان يستعملوا تلك الرقاع الحقيرة وخافوا ان يتعاملوا بالفضة . واحتشد الاهالي عند صاحب الديوان يصخبون ويضجون ويسبونه ويشتمونه اقبح الشتائم ويسمونه عبارات الاستهزاء والاستحقار (٥٨٤) لا يريدون ان يذعنوا لقوله او يخضعوا لامره حتى اخذه الذهول وحار في أمره وخجل ان يعود في كلمته ولم يستطع الى تكميل مرامه سبيلاً .

وراح الشعراء ينظمون ابيات القدح والهجاء في حقه ولم يبقَ مطرب او مغنٍ الا انشأ الاهازيج ونظم الاغاني والزجليات في ذمه والتهكم به . ولما رأى ان الخاص والعام جميعاً يناهضونه أصدر امرًا ملكيًا اطلق فيه الحرية في التعامل بالشاو او الفضة على حد سوى . واعلن ملك الملوك بقوله : اننا لم نأمر باستعمال الشاو الا ترويجاً لمصالح الاهالي ليعيشوا عيشة هادئة مطمئنة . وقضى كذلك بالغاء الجزية والضريبة. وذكر ان الحاجة الى الاموال اضطرته ان يأمر بطبع الالوف والربوات من القراطيس الى ان قال : والان فلسنا نضطر الاهالي في ذلك بل نطلق لهم الحرية في التعامل كما يشاؤون. عند ذلك

شمل السرور جميع البلاد والمدن وفتحت الطرق والاسواق بعد ما ظلت شهرين كاملين مغلقة لا بيع فيها ولا شرا. ولا أخذ ولا عطاء .

ولما دخلت السنة ١٦٠٦ لليونان (١٢٩٥ م) عاد بيدو ليشتي ببامد دقوقة كعادته وانتوى الخروج على كيخاتو ومناوأته وتآمر سرًا مع القواد المغول المجاورين له وحشد الجنود واقبل بذاته الى بلد الموصل وقبض على القائد الذي فيها وبطش به . وارسل فبطش كذلك بالقائد في بغداد . فتخوف سائر الزعماء المغول جرأته وانضموا اليه مسرورين مبتهجين وسيّروا الوفود الى قازان معربين عن موافقتهم له وذكروا : ان كيخاتو قد خالف طريقة المغول واستخف بأبيهم جنكزخان وأتلف خزائن الدولة اذ انفقها في الخلاعة واسرفها في البذخ والشهوات الدنيوية لا يهمه امر الدولة ونجاحها . بناء عليه اجمع الاقطاب والزعماء والابناء والبنات والنساء والمرائس على خلعه . (٥٨٥) ثم صرحوا لقازان بانهم متفقون على مبايعته بالخلافة المغولية .

اما قازان فارسل يقول لبيدو : انك عظيم في اسرائيل واننا باجمعنا موافقون لك وسائرون حسب سياستك . فاصنع كل ما يلزم ويوافق ويفيد بشرط ان تظل دعائم الدولة راسخة غير متزعزعة . واستطرد يقول : ان الذي يتولى تخت المملكة يلزمه ان يحجم عن البذخ والرفاهية في المطعم والمشرب ويكف عن الاسراف وعن السخاء في غير وجوهه . ويفرغ كل جهده في المحافظة على الدولة ويفتكر دائمًا في مناهضة الاعداء ومقاومة من يقاومه اذ ان المملكة لا تتعزز بربوات الجنود والجيوش بل بحكمة الملك وخبرته .

ولما عرف الاقطاب وابناء الملوك والقواد والضباط ان قازان وبيدو قد اتفقا اتفاقًا حبيًا وجعلا يتفاوضان على يد السفراء في من يخلف كيخاتو في العرش الملكي قرّروا طبقًا لشريعتهم ان يتولى قازان ولا سيما لان بيدو يناضل في سبيل ذلك بكل قواه . بناء عليه اغمضوا عن كيخاتو وهو لا يدري ولا يعرف ما يصير اذ كان كألوف عادته منصرفًا الى قضاء اوطاره وتكميل شهواته . غير انه لما اطلع الخاص والعام على المؤامرة وبلغه ايّاها أفاق من غفلته ووجه سفيرًا الى نواحي ديار بكر اعني الى الاقطار الشمالية ليمشدوا الجنود ويتوجهوا فيقبضوا على بيدو . لكن السفير عند بلوغه الى تلك الاطراف

رأى ان الجيوش قاطبة متفقون مع بيدو وانهم متأهبون ليزحفوا ويناوشوا كيخاتو . فانقلب اليه فوراً فاخبره بما ينوونه . وتبادر الى ظنّ كيخاتو ان بيدو مزمع ان يتوجه الى مقر قازان فحشد العساكر واغلق الطرق والثغور المؤدية الى خراسان . وجهز طاشر القائد الكبير في ربوة من الجند وارسله (٥٨٦) ليصدّ بيدو عن العبور في جبال شهرزور. ثم وجه كذلك حماه آغ بوقا في ربوة ثانية وعوّل ان يزحف هو ايضاً في ربوة ثالثة ويتوجه الى مبارزة بيدو .

ولما شارف كيخاتو مدينة تبريز وحل في مكان يقال له اوجان وصل اليه طاشر وآغ بوقا في ربوتيهما ونزل الجميع في سفح جبل شهرزور من الناحية الشرقية . وكان بيدو ورجاله في الناحية الغربية فوجه سراً الى طاشر يقول : اني متحرق غيرة على تعزيز الدولة المغولية ولست أتوخى الا القضاء على كيخاتو بسبب أفعاله الشائنة ولا سيما لاني علمت انه لم يترك لكم نساء او ابناء او بنات الا انفس معهم في الدنس . فالخليق بنا ان نتحد كلنا قاطبة ونعزله ونقيم قازان خلفاً له في العرش الملكي ونخضع له باجمعنا .

أعجب طاشر بخطاب بيدو ووافقه في رأيه وارسل من ساعته يخبر رفيقه آغ بوقا ويصرح له بانه محالف لبيدو وموافق له وانه مزمع ان ينضم اليه . ثم طلب منه ان يطلعه على هدفه . غير ان آغ بوقا لكونه حما كيخاتو لم يعجبه رأي طاشر بل تكدر خاطره ونوى ان يعود الى كيخاتو في الجنود الذين معه. ولما اصبح الصباح ركب طاشر كأنه يريد التوجه الى بيدو وغلب على ظنّ اغ بوقا انه مزمع ان يناوشه وينهزم فسارع في بعض جنوده يريد كيخاتو وحار في امره واستدعى اليه باريم القائد الذي معه وقال له: ارى ان عساكري قد انتقضوا عليّ فكن شجاعاً بطلاً واحمل عليه ولا تتأخر. ثم أحضر ثياباً والبسه.

(٥٨٧) اما باريم فركب حصانه كمن يريد المعسكر حيث كان اهله ونساؤه وترك الخيام والمضارب وما كاد يبتعد نحو مرمى سهم حتى كبس خيام كيخاتو وهزمه وجعل ينتهبه . وكان كيخاتو قد ارسل فطلب وركل قائد العسكر الكرجي فاقبل اليه في ربوة من جنوده وشاهد هناك الجنود مزدحمين ينهبون ويخطفون وقد وقعت بينهم الفتن والخصومات والمنازعات. وما مرّ القليل حتى وصل كيخاتو في اربعة او خمسة نفر فوثب اليه باريم واحدق به وركل

كذلك واجهز عليه معاً في ٥ اذار ١٦٠٦ لليونان (١٢٩٥ م) دون ان يشعر بيدو بما جرى .

على ان بيدو لم يكن ينوي الفتك بكيخاتو بل كان يروم ان يقبض عليه ويعتقله في احدى القلاع وقد وجه بعض الجنود ليأتوه به ولكنهم شاهدوه قد مات فعادوا واخبروه بما صار .

وبعد هذا اجمع الاقطاب والبنون والبنات والاصهار والعرانس على التسليم والخضوع لبيدو . وهذا بدوره ارسل سفيراً الى قازان يستقدمه عاجلاً. وكان قازان مقيماً في بلد بعيد والشتا. شاملاً الاقطار والبراري خالية من العشب فتعذر عليه تلبية طلبه حالاً . اما اصحاب بيدو فلما استبطأوا قدوم قازان جعلوا يقولون له: ان المملكة جديرة بك لا بقازان الفتى الصغير السن الذي لا يتيسر له النهوض بسياستها . فاذا اعرضت عنها وسلمته تدبير المملكة استت احوال الدولة مشوشة مضعضعة . فاغترّ بيدو بكلام المملقين وجعل يتباهى ويتفاخر وعدل عن (٥٨٨) انتظار قازان . ووجه من نقل من تبريز العرش الملكي الفخم الذي تبوّأه آباقا وارغون وغيرهما واقامه قرب اوجان واستوى عليه معتقداً ان المملكة قد استقرت له . وبعد ما اقام هناك اياماً معدودة مستسلماً للاكل والشرب ارتحل الى نواحي سياهكوه وحالفه من كان هناك من الابنا. والبنات والاخوة والانسبا. والقوّاد والزعما. قاطبة واخذ يسوس الجميع سياسة هادئة مطمئنة . وخصص لكل من الاخوة وابنا. الاعمام ناحية يستغلون مواردها ويتمتعون بها . وقرر بانه اذا فضلت فضلة يبعثون بها اليه . واذا عازهم شيء يطلبونه منه. هكذا ودعوه جميعاً محبوزين يؤدون الشكر لله تعالى على استتباب الامن والاتفاق ما بين الجنود والزعما. قاطبة .

اما قازان فلما شارف سياهكوه وعرف ان بيدو قد استعل المملكة واستوى على العرش خلافاً للشرع احتدم غيظاً ولحقه ما لحقه من الكمد متأسفاً على ما كابده هو وجنوده من المشقة والعنا. في طريقهم الطويلة الصعبة . وجعل يقول : أليس بيدو هو الذي استدعاني ؟ فلماذا لم يصبر ؟ وعلامَ جلس على العرش دون موافقتي ؟

اما بيدو فكان واثقاً بانه يهدئ روع قازان ويساويه ببذل العطايا الفائقة

وبالكلمات الحلوة والعواطف الرقيقة ويجعل تحت سلطته خراسان كلها وشيراز والبحرين وكرمان ويتخلى له عن جميع عسكر ارغون ابيه وعن جميع الخيل والبقر والقطيع والاموال والارزاق ينقلها معه الى خراسان متى شاء .

وقد وصل قازان الى قونطوراولان وبقي (٥٨٩) بينه وبين بيدو مرحلة يوم واحد فشاور نوروز بن ارغون قائد جيشه وكان هذا محنكاً بالحروب بطلاً في المطامع واتفقا كلاهما ان ينقضا بغتةً على بيدو دون ان يشعر بذلك . غير انهما لم يتوفقا في ما اعتزما . ذلك لانهما لما ركبا ليلاً وسارا بقوة شديدة تفجرت ميازيب السماء وهطلت الامطار وارعدت الرعود وهبت الرياح والعواصف فضلاً الطريق وتاها وسارا يتسكعان في الدياجير حتى اصبح الصباح فاذا هما قريبان من عسكر بيدو لا يتجاسران الدنو منه بسبب ما لحقهما من الرطوبة والعناء والضعف فضلاً عن تشتت جيشهما وتبعثره وهكذا أقاما حائرين مدهوشين .

اما بيدو واصحابه فقد استحوذ عليهم الرعب والهلع وركبوا هم كذلك وخرجوا ليبارزوا قازان . فلما رأى قازان ان لا سبيل الى القتال الحدر من حصانه وسارع الى بيدو وقبل احدهما الآخر يخجلان ان يقضي احدهما لصاحبه بما نويا وبما حدث . فبيدو بسبب تسرعه وعدم انتظاره قازان وقازان بسبب قدومه الى بيدو ليلاً ليوقع به . وفي الحقيقة انه لولا الامطار والبروق والرعود لقُضي على بيدو وعلى اصحابه قاطبةً لا محالة .

ومن ثم فلما اتفقا وتصالحا وجعلا يتعاتبان ويتعاذلان أبدى قازان لبيدو خضوعاً جميلاً وذكاء مفرطاً وحكمةً جديرةً بالملوك مصرّحاً بانه تسالم وتصالح معه وأخفى على كل ما قيل له . واقسم احدهما للآخر بالآ (٥٩٠) يتنازعا ويتحاكما فيما بعد وان يسيرا معاً بالهدوء والسلام والحب والاتفاق والوئام .

ثم ان بيدو عرض على قازان ان يتوجها الى المعسكر ليلاً ليأكلا ويشربا ويتسامرا مسرورين بما جرى بينهما من الصلح والموادعة . لكن قازان احتج بما اصابه من العناء والتعب في الليلة السابقة وقال : الاولى ان يعود كل منا الى مكانه ليأخذ نصيباً من الراحة ثم نعود فنجتمع صباح الغد . فاقتنع بيدو لبساطة قلبه واطلق له الحرية في ما رغب . ولما فارق بيدو امتطى ظهر حصانه

وظل يطارد منذ عشية ذلك النهار والليل كله وهو ينظر غير مرة الى ورائه متعجباً بافلاته من يد بيدو .

وراح بيدو يهيء في المعسكر الوان الاطعمة والهدايا الوافرة دون ان يهدأ او يكل او يرقد وهو يفتكر في تهدئة خاطر قازان وارجاع المياه الى مجراها . ولما اصبح الصباح بعث بعض الزعماء ليطلعوا عليه ويستفسروا عن صحته . فساروا فرسخاً وفرسخين وثلاثة واربعة ولم يشاهدوا في تلك الطريق سوى بعض احصنة مهجورة او ميتة . فانقلبوا عائدين واخبروا بيدو بما كان. فتأكد له ان قازان لا يزال على كيده وحقده وانه انما عاد لكي يشتد بالاكثر وينقلب الى مناوشته . فخاف كل الخوف وارسل في استحضار الاقطاب والجنود جميعاً كيما يعارضوا قازان ويناهضوه عند عودته .

اما قازان فقد شاور البطل نيروز واتفقا على ان يرسلا الى بيدو سفيراً يرطّب خاطره ويلهيه عن حشد عساكره ومناوشة خصمه . معتقدين انه اذا حاول حشد الجنود تيسّر له ان يجمع منهم الوفاً وربوات ويصبح قازان غير قادر على مبارزته (٥٩١) . ثم اتفقا على ان يصرح السفير لبيدو بان جنود قازان قد غارت قوائم وان دوابهم ضعفت بسبب قلة الغذاء ولا سيما لان تلك السهول خالية من الحشيش والمرعى ولا يتيسر لهم الحصول على العلف لدوابهم وعلى القوت لطعامهم . وبعد هذه المحادثة رضي نيروز ان يقوم هو بتلك السفارة. ويقنع بيدو كيفما كان كي يلزم السكينة مطمئناً ولا يتحرك .

وصل نيروز ورحب به بيدو كل الترحيب وكشف له مضمرات قلبه حتى افضى الامر بنيروز ان يقول لبيدو : ان كنت في ريب او شك من قازان فانا مستعد ان اعود فأتيك برأسه في طبق . قال هذا وهو يتذرع بكل الذرائع ليتملص ويعود بالسلامة . اما بيدو فقد سُر بتصريح نيروز وقال له : اذا تيسر لك ذلك فاني مستعد ان استودعك جميع ذخائر مملكتي ثم اسدي اليه هدايا قيمة ودفع له ربوات من الذهب وكتب الى صاحب قزوين ليدفع له ربوة اخرى وصرفه .

ولما وصل نيروز واخبر قازان بما صار اخذهما العجب والتحير معاً ولا سيما لحصول نيروز في قبضة بيدو وتصرف بيدو معه بكل سذاجة دون ان يبطش

به . ومن ثم جعلا كلاهما يستعدان للحرب ويحشدان العساكر من كل ناحية . وتولى نيروز عينه قيادة الجيش. وارسل قازان مع نفر قليل الى جبال مازندران ليلتهي بالقنص .ووجه شرزمةً الى جهةٍ اخرى وظل هو وخواصه في جهة ثانية.

اما بيدو فظل يتقلى ويتكوى وهو يقول : اين هو قازان ونيروز ؟ وماذا يشتغلان ؟ وهل من نيتهما ان يحاربا ام لا ؟ وجعل يرسل الوفود تترى ليطلع على حقيقة امرهما . ولما وصلوا (٥٩٢) وقابلوا نيروز وطلبوا ان يواجهوا قازان نفسه ويحادثوه شخصياً جعل نيروز يقول لهم : ما الفائدة من مقابلتكم فتًى غبياً لا يعرف شيئاً ؟ ما هوذا يطوف الجبال والوهاد لا يهمه الا القنص . فاذا كان لا بد لكم من مشاهدته فهذا أبعث معكم من يدلكم على مكانه . وبالفعل سار اولئك الوفود في فريق من الرجال مضوا بهم في طريق قفراء. وطوّحوهم من قريةٍ الى قرية ومن مدينة الى مدينة حتى اوصلوهم بعد ايام كثيرة الى مكان قازان . وما قابلهم قازان حتى طفق يشكو ويتذمر من بيدو وهو يقول : اين العهود التي عاهدني بها ؟ واين المعسكر ونساء ابي ووصائفه وقد وعدني بان يوجههم اليّ ؟ فاذا كان ينقض العهود كان حقه ان يعلني لاترك كل شيء ، واعود الى خراسان .

عاد الوفود الى بيدو وجعلوا يحلفون ويؤكدون له ان قازان لا ينوي المحاربة وانه لم يحشد الجنود على الاطلاق وهو ينتظر ان تنجز له وعدك ليعود الى مكانه . فاقتنع بيدو وارتضى ان يوجه الى قازان كل ما وعده به . غير ان الاعيان لم يوافقوه مؤكدين له ان في الامر دسيسة وخداعاً وخيانة. وان قازان انما يحاول الاستيلاء على معسكر ابيه لكي يزحف ويأتي لمناوشتك. ولا بد من ان يتبعه وينضم اليه ربوات من الامم والشعوب في الوف من الخيل والاعتدة.

وبعد قليل وجه قازان الى بيدو يقول : استعجل في ارسال العساكر لان الاعداء الشرقيين الذين في سواحل جيحون متحفزون للزحف الى ناحية خراسان وقد ظهر كثير من الخوارج وانضموا اليهم . غير ان الاعيان والزعماء الذين لدى بيدو قرروا بان تلك الاخبار مموّهة كاذبة لا حقيقة لها .

اما قازان فلما أخفق (٥٩٣) في ما نوى ارسل يقول لبيدو : لا حاجة الى العساكر . ذلك لكي ينفي عنه كل ظنّ سيء . اما بيدو فقد تمهل مدة

يخيل له الظل جسماً ويحسب تلك الحيل لا صحة لها وراح ينهمك في المطاعم والمشارب . ولكنه لم ينصرف الى الخلابة نظير كيخاتو سالفه بل كان يسير سيرة مرتبة منتظمة حميدة يجامل الفضلاء والحكماء والاطباء والنساك من اية امة كانوا ويجزل لهم المواهب ويوشحهم بحلل ملكية . وبما ان دهسبينة ابنة ملك اليونان قرينة اباقا كانت مقيمة لديه منذ بضع سنوات فلذلك كان يميل الى العطف على المسيحيين وينقل معه في معسكره كنيسة وناقوساً . غير انه لم يستحسن المجاهرة بالدين المسيحي لان المغول في عهدنا كبارًا وصغارًا قد انضموا الى الدين الاسلامي واختتنوا وجعلوا يزاولون الغسل والصلوات الخاصة به مما حمله على المجاهرة بالاسلام نظيرهم تحبباً الى اقطاب دولته . ومع ذلك كله لم يتمكن من الاستغناء عن النصارى اذ لم يكن يثق بغيرهم في شؤون الدولة وحساباتها . وهذا ما حمله على ان يعرج على الجنبين اذ كان يقول للنصارى انه نصراني والصليب معلق في عنقه ويقول للمسلمين انه مسلم ولكنه لا يستطيع ان يمارس غسولهم وصلواتهم . وكان اذا حضر لديه ائمة المسلمين وقاموا للصلاة وجه ابنه ليصلي معهم (٥٩٤) تأميناً لافكاره وتهدئة لخطهم . وقد عرف المسلمون حق المعرفة انه يميل الى المسيحيين اكثر من ميله اليهم . وظلّ زهاء خمسة اشهر يسوس مملكته على هذا النسق .

اما هيتوم ملك قيليقية العادل الصديق[1] فلما بلغه نبأ انتصار بيدو واستوائه على عرش الدولة المغولية ومحبته للنصارى وميله الى عقيدتهم اكثر من سائر العقائد عوّل على زيارته شخصياً توطيدًا للعلاقات بينهما . فغادر وطنه واستغرق سفره زهاء شهرين . وعند وصوله الى سياهكوه اتفق وصول الامير نوروز كذلك في عساكره لكي يقبض على بيدو . وانصرف بيدو الى استدراك امره فوجه سفيرًا الى هيتوم الارمني يقول له : ارجع الى مراغة وانتظر هناك ريثما اطمأن واعود الى المعسكر فاكتب اليك في الشخوص اليّ . فسار هيتوم الى مراغة واقام فيها زهاء عشرة ايام وسمع ان بيدو قد فرّ من وجه نيروز البطل الكبير ووصل قازان ملك الملوك وتوجه الى تل الاسود بجانب ديهورقان

[1] هو هيتوم ارحام الثاني ملك الارمن وقد انضم الى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وتوشح في اواخر حياته بزنار رهبنة مار فرنسيس وتوفي راهباً .

وعند ذلك تهيأ هيتوم وانطلق الى زيارته وقدّم له هدايا وافرة فقال له قازان: انك ما جئت لتزورنا بل لتزور بيدو . فقال له هيتوم : ينبغي لي ان اودي الخضوع لسلالة جنكزخان بأسرها واوافي للنهوض بخدمة من يستوي على عرشها. عند ذلك رحب به ملك الملوك ترحيباً جميلاً ووشحه بحلل ملكية وأمر ان يسجل له الفرمان (٣٩٣) وتنفذ مسائله كلها .

وكان قبل هذا التاريخ قد صدر الامر بتقويض الكنائس فالتمس الملك هيتوم من ملك الملوك ان يأمر بابقائها لكونها دور الله عز وجل وبيوت الصلاة. فاصدر ملك الملوك فرماناً قرّر فيه ان تبقى الكنائس على ما هي وان تحول بيوت الاصنام الى مساجد ومدارس اسلامية . هكذا بواسطة هذا الملك الارمني حفظت كنائس جمة ولم تتقوّض. وغادر هيتوم المعسكر الملكي محبور الفؤاد مبتهجاً كل الابتهاج وكان ذلك يوم الاحد ٩ تشرين الاول ١٦٠٧ لليونان (١٢٩٦م) .

اما نوروز فقد انقض في جيشه على بيدو في مكان يدعى قونقور اولان ولم يتيسر لبيدو ان يبارزه او يقاتله ساعة واحدة لكنه انقلب سريعاً وانهزم من وجهه يوم السبت ٢٤ ايلول ١٦٠٦ لليونان (١٢٩٥م) وظل نوروز يتبعه حتى يوم الخميس سادس تشرين الاول ١٦٠٧ لليونان (١٢٩٦م) فادركه وبطش به.

وبعد هذا صدرت الاوامر بان تقوّض الكنائس وبيوت الاصنام ومعابد اليهود وان يقتل احبار الوثن ويحتقر الاساقفة ويؤدوا الجزية والضريبة. واضطرّ النصارى ان لا يظهروا الا بمنطقة على حقويهم وان يتخذ اليهود علامة على رؤوسهم.

وثار الاهالي يومئذ في تبريز وقوضوا جميع كنائسها وشمل الحزن جميع النصارى في كلّ الدنيا . ولا يتيسر لنا ان نحصي جميع ما كابدوه من الاهانة والاحتقار والذلّ ولا سيما في بغداد فقد بلغنا ان الرجال المسيحيين لا يتجرأون ان يظهروا في السوق وان نساءهم يخرجن ويدخلن ويقمن بالبيع والشراء لانهنّ لا يتميّزن عن النساء المسلمات في زيهنّ (٥٩٦) واذا اتفق للمسلمين ان يعرفوهن انصبوا عليهن بالضرب واللطم والسبّ والشتم. فاصبح النصارى في تلك النواحي متقلبين في اتعس الحال واشقى الحياة يسخر بهم اعداء العدالة والانسانية ويقولون لهم : اين هو الاهكم ؟ واين من يساعدكم وينقذكم ويخلصكم ؟

على ان هذا الاضطهاد قد شمل النصارى واليهود معاً . اما احبار الوثن عبدة الاصنام فكان ملوك المغول يخصونهم بكثير من الاجلال والاكرام . حتى انهم كانوا يجودون عليهم بنصف واردات الدولة ينفقونها في سكب الاصنام الذهبية والفضية . فلما شملهم اضطهاد التتر جاهر اعليهم بالاسلام .

وبعد هذا اصدر ملك الملوك اوامر قاطعة وبعث وفوداً مغوليين الى كل مدينة وبلد في هدم الكنائس ونهب الاديار. فكان اولئك الوفود اذا شاهدوا مسيحياً ينهض بخدمتهم ويدفع لهم مبلغاً من المال اغمضوا عنه وتركوه وشأنه. اذ كانوا يفضلون حشد المال على تقويض الكنائس .

وقد توجه المأمورون التتر الى اربيل واقاموا عشرين يوماً ينتظرون اعيان النصارى كي ياتوا الى زيارتهم ويتعهدوا لهم بمبلغ من المال حرصاً على كنائسهم. غير ان المطران ذاته لم يهتم هذا الامر الخطير . وبالجملة فان كلًّا من الاهالي كان منصرفاً الى تدبير بيته فقط. ذلك ما حمل المأمورين على ان يفسحوا المجال للسلمين فوثبوا باجمعهم الى كنائس المدينة الثلاث الفخمة فاخربوها وقوضوها من اساساتها . وجرى ذلك (٥٩٧) يوم الاربعاء ٢٨ تشرين الثاني من تلك السنة .

ولما بلغ النصارى المواصلة ما جرى هناك من الاهوال والفواجع خافوا خوفاً عظيماً . وما ان وصل المأمورون الى نواحيهم حتى خرج اليهم فريق ممن امتازوا بتفانيهم وحرصهم على الكنائس المقدسة وقرروا ان يدفعوا لهم مبلغاً من المال وافراً . واضطروا بسبب فقر حالهم ان ينتزعوا اواني الكنائس وامتعتها فلم يتركوا صليباً ولا صورة ولا مبخرة ولا انجيلاً مرصعاً بالذهب او الفضة الا اخذوه. ولم يكتفوا بذلك كله بل فرضوا مبلغاً على المؤمنين في المدن والقرى وجمعوا زهاء خمسة عشر الف دينار ادوها للتتر في سبيل انقاذ الكنائس وتسديد الضرائب.

وحدث في تلك الفضون خلاف بين ملك الملوك وبين بعض المغول الاورتيين الذين يقضون فصل الشتاء حوالي دير مار متى بناحية الموصل فوجه اليهم وفوداً يتوعدونهم ويتهددونهم لانهم في عهد الملك بيدو كانوا قد تعدّوا على التركمان وانتزعوا غنمهم وبقرهم وقطعانهم وخيلهم وبغالهم وجمالهم . فصدر الامر من لدن قازان ملك الملوك بان يردوا الى التركمان كل ما سلبوه منهم والا فاذا تردوا ولم يطيعوا وجب ان يقتلوا جميعاً .

على ان اولئك المغول الاورتيين كانوا قد اتلفوا أغلب ما سلبوه من التركمان مما حمل الوفود التتر والتركمان معاً على الاساءة اليهم ومضايقتهم كل المضايقة . فما كان من اولئك الاورتيين الا ان حملوا (٥٩٨) حملة واحدة على الوفود وعلى التركمان معاً وبطشوا بهم . ثم جمعوا اهلهم وكل ما امكنهم حمله وانهزموا الى سودية وكان عددهم ربوة كاملة بينهم رجال حرب وقتال . وتم ذلك يوم الثلاثا ١٩ كانون الاول ١٦٠٧ لليونان (١٢٩٦ م) .

وفي هذه السنة لم يزحف لصوص سودية الطغاة الى هذه الناحية الشرقية . لان الله جلت احكامه سمع صوت دماء المظلومين وصراخ المساكين فانتقم من اعداء الانسانية وسلط عليهم الغلاء والطاعون ولا سيما في مصر . فقد قيل ان الاسكندرية فرغت من السكان بالكلية . غير ان هذا الخبر لم يثبت عندنا بعد فلم يزّ التبسط في ذكره ومما لا شك فيه ان الغلاء والوباء قد فتكا بالمصريين فتكاً ذريعاً .

وفجر الاثنين ٢٠ حزيران ١٦٠٨ لليونان (١٢٩٧م) زحف علاء الدين ابن جاجا الى مدينة آمد في جيوش كثيفة من العرب قادمين من سودية . وسبوا اهاليها سبياً انيماً واستأسروا منهم اثني عشر الفاً واجبروا على جهور غفير من المسيحيين . ونكلوا بالسيد غريغوريوس مطران المدينة تنكيلاً فظيعاً وبطشوا به . واقتحموا فدخلوا كنيسة والدة الله الكبرى وانتهبوها واحرقوها بالنار فتشوهت ابنيتها وتضعضعت سقوفها واعمدتها الجميلة العجيبة وامست بسبب اللهيب والحريق الفظيع كومة من الحجار . وظلت النيران مشتعلة فيها نحو شهر .

واما جرى ما جرى لان اهالي آمد انتقضوا على الملك الصالح صاحب ماردين فارسل يستقدم ابن جاجا المذكور فزحف اليها في اثني عشر الف (٥٩٩) فارس وفتح لهم الابواب اميرها علم الدين وادخلهم دون ان يشعر احد من الاهالي وانهزم الى ماردين . فاحتلوا المدينة واخربوها . وكانوا يدخلون بيتاً فبيتاً ويشاهدون الرجل وامرأته واولادهما راقدين فينبهونهم ويقتلون الرجل ويستأسرون المرأة والاولاد ويساقونهم .

الحمد لله تعالى في البدء والنهاية